اللواء ٢٥ تشرين الأوّل ٢٠١٨

في سبيل ضمير «متصل»

أصبحت لفظة «الضمير» اسماً لا معنى له. ولا عجب، فان تلك اللفظة، على ما يبدو من سمو قدرها، تتبدل وتتغير بحسب مفاهيم النّاس وبيئاتهم وأهدافهم في الحياة.

بين النّاس، جماعة تتقلب مع الزمن وتتبدل تبدل الجو في شباط، من غير ان تراعي للضمير حرمة، أو تحفظ للمواثيق عهداً من العهود.

وكثيرا ما يكون دأب أولئك الناس، سلق غيرهم بألسنة حداد، وإيصال الشر إلى سواهم بقصد أو من غير قصد، حتى كأنهم خلقوا للفساد والنميمة والأذى.

انـي لأشفق على هـؤلاء، لأنهم يقضون عمرهم في توافه الأمـور، ظناً منهم ان في ذلك تسلية أو أن التفريق بين الأصدقاء والقلوب المتحابّة، واجب من أهمّ واجباتهم الاجتماعية.

ولو كان لهؤلاء مقدار ذرة من الضمير، أو لو أنبهم ضميرهم على ما يصنعون من سوء، لارتدعوا عن غيّهم، ولعادوا إلى صوابهم، ولعلموا ان لا شيء أحبّ إلى الله وإلى عباده المتقين، من نشر الوئام والسلام وإحلال الولاء والاخاء، بين الأهل والخلّان والأصدقاء.

ومما لا ريب فيه، ان معظم النّاس في عصرنا هذا تستهويهم ابتسامة وتلعب بعقولهم اشارةعابرة فيفكرون في ذواتـهم قبل أن يفكروا في سواهم، ويضحون بكرامتهم واصدقائهم المخلصين.

ولعلّ الذنب ذنبُ هذه الفوضى الاخلاقية التي انغمسنا فيها اكثر من سوانا، اننا وأيم الحق، في عالم يعيش معظم أبنائه بلا ضمير، أو بضمير منفصل أو مستتر لا يبالي كثيراً بالمحرمات والضوابط، ولا يأبه لمكارم الأخلاق..

ونحن نعلم جيداً، ان أعظم راحة يُمكن أن يشعر بها الإنسان، تتجلّى في الضمير الحيّ الوادع السليم، الضمير «المتصل» بالقيم الذي لم تلوّنه أمراض الأنا، ولم تتغلّب عليه جراثيم الحقد والكره والاستئثار.

إن راحة الضمير لا تعادلها متع العالم مجتمعة، فمهما أوتي المرء من مال ورفعة وجاه، يظلّ في همّ وغمّ واكتئاب إذا كان ضميره معذّباً. وفي السلوك القويم، والعمل الصالح، والصراحة في القول، والابتعاد عن موطن البغض والضرر، ضمانة قوية لراحة الضمير، وهناءة العيش.

وقد يظُن بعضهم، ان الصراحة تضّر بصاحبها، ولكن الأمر على عكس ذلك تماماً، فإن صاحب الضمير النزيه، والكلام الصريح، لا يعرف الغش ولا الخداع ولهذا يحبه الناس، ويخلصون له.

يعيش أناسٌ كثيرون ويموتون، من غير ان يتركوا فضلاً أو ذكرى طيبة، لأنهم كانوا أنانيين، لا يحبون إلاّ سعادتهم ولا يسعون إلاّ خلف نفعهم الذاتـي، على الرغم مما اظهروه في حياتهم من حبّ واخـلاص وسلامة نيّة.

إن عادمي الضمير، يحبون ظاهراً ويكرهون باطناً.

يهاجمون ويسالمون، ويُقدمون على كل شيء لنيل ما يريدون.

ولا شك في ان معاشرة النّاس، تلقّن المرء دروساً كثيرة، فإن أتيح للإنسان أن يعاشر أهل الخير والصلاح، تجلى بمعظم الحـالات، خيراً صالحاً، وان قُضي عليه ان يعاشر ذوي الضمائر المريضة، كره معاشرة الناس، وتعلّم ربما الصبر على الأيام ومواجهة الشدائد.

كثيراً ما نرى أشخاصاً يغرّنا منظرهم، ويستهوينا كلامهم، فنظهر لهم الحب والإخلاص، ثم لا نلبث أن نستيقظ على حقيقة مؤلمة، تذكرنا بقصة الذئب الصغير الذي أشفق عليه أحدهم، فحمله إلى منزله، وربّاه مع ولده، وجاءَه بشاةٍ ترضعه من حليبها.

ولكن، ما كاد الذئب الصغير يكبر وتشتدّ منه البراثن والأنياب حتى هجم على الشاة فافترسها، ناسياً حنوّها وحنوّ صاحبها عليه. فحذار!

الدكتور جهاد نعمان